حركة العيارين والشطار

بقلم الاستاذ عبد الجليل الطاهر

عضو البعثة العراقية في انكلترا

منهج البحث :

١ — الاسباب السياسية والاقتصادية التي أدت الى ظهورهم .

٢ — اخلاقهم ولباسهم وأساليب تكتلهم .

٣ — بدايات ظهورهم وفعالياتهم .

٤ — علاقة العيارين والشطار بحركة الفتوة .

٥ — الخلاصة .

« كنت قد أعددت رسالة عن «اصحاب الحرف الاسلامية» ودرست الظروف والاحوال السياسية والاقتصادية التي أدت الى تكتلهم ؛ فبحثت في الفصل الاول انتقال الفاتحين السيلجيين الى دور الاستقرار الزراعي وتناولت فيه سياسة الرسول (ص) والخلفاء الراشدين وخلفاء بني امية والعباسيين تجاه مشكلة الاراضي — وتكلمت في الفصل الثاني عن التحول التجاري والصناعي وبتأثيره على المجتمع الاسلامي — وبان لي ان الازدهار الصناعي والتجاري وتناقض المجتمع هو الظرف الصحيح لبروز هذه الطبقات . وفي هذا المقال يجد القارئ الكريم استعراضاً شاملا عن الاسباب السياسية والاقتصادية التي أدت الى ظهور العيارين والشطار .. وبكلمة مختصرة هم من اصحاب الحرف العاطلين الذين دفعهم العوز والفراغ، وسوء الاحوال الادارية والسياسية الى خرق النظام والتجاوز على الملكيات . وفي هذه الكلمة سيتعرف القارئ على موقفهم من الطبقات الحاكمة ومن الاثرياء ومن النساء والشيوخ والاطفال . »

١ — الاسباب الاقتصادية والسياسية

بعد ان استطعنا في الفصلين السابقين ان نقدم صورة للمجتمع الاسلامي (١) ، وان نبين العوامل الجديدة التي نشطت فيه على إثر الازدهار التجاري والصناعي، وكان من نتائج تناقض المجتمع ؛ و اشتغال جماهير كبيرة من العامة في المدن الرئيسية مثل بغداد ، والبصرة ؛ ودمشق ؛ والقاهرة في المصانع والمتاجر وبسبب تركز السكان وازديادهم ان وجدت طبقات جديدة من العاطلين الذين لا يملكون غير قواهم العضلية يعرضونها لكل مستغل ، أو رب مصنع أو متجر او او ثائر . هذا بالاضافة الى ظهور عوامل جديدة أخر هي الفتن الدينية ، والانشقاقات المذهبية والتناصر الحزبي ، والتكتل القومي، التي سببت تعطيل المصانع وهددت طرق التجارة ، وبذلك شلت الحركة الاقتصادية وتعطلت الأيدي العاملة في حين تريد الاقوات لتعيش ولعل أبا الحسين هلال بن المحسن بن هلال الصابي (٢) يقدم مثالا حساسا وطريقا عن اعداد كبيرة من عمال الحمامات ومن نفوس المدينة الذين كانوا في بغداد ، وهذا العدد الضخم يبين الى أي مدى اضطربت فيه الحياة الاجتماعية والسياسية حين تغيرت بل تدهورت الاحوال الاقتصادية ، يقول الصابي : « وقع في يدي كتاب يذكر فيه ما في أيام المعتضد بالله . وذلك بعد فتنة الامين رحمة الله عليه، التي احرقت وهدمت صدراً كبيراً منها واثرت الآثار القبيحة فيها ، ترجمته فضائل بغداد العراق تأليف يزدجرد ابن مهبذار الفارسي لأمير المؤمنين المعتضد بالله قال فيه :

« قد اكثر الناس في بغداد العراق اكثاراً لم يعطونا فيه دليلا ؛ ولا أفادونا به محصولا ، واقتصروا على أن يقولوا بلد لا يشبه البلدان ولا كان مثله في قديم الازمان فان من أقل ما فيه انه يشتمل على مائتي الف حمام الى الضعف ومن المساجد والطرازات كذلك الى ما هو يتضاعف . ثم قال آخرون بل هي مائة وثلاثون الف حمام كما قالوا مائة وعشرون . قررنا اختلافهم على حد نرجوه عدلاً متوسطا وحكما متقبلا واقتصرنا من عدد الحمامات على ستين الف حمام استظهاراً وجعلنا العلة في ذلك ان نأخذ وسط ما ذكروه من اعدادها ، وما وجدنا الخاصة واكثرهم يدعيه في اعتقادها وهو مائة وعشرون الف حمام فاقتصرنا على

(١) راجع العدد الاول من مجلة دار المعلمين العالية والعدد الثالث من المجلة نفسها .

(٢) ابو الحسين هلال بن المحسن بن هلال الصابي . رسوم دار الخلافة . وهي نسخة خطية موجودة في مكتبة دار الآثار العراقية برقم ٢٩٠٠ . ٣٩ / ٨ / ٣

النصف من المائة والعشرين لئلا تبقح في التقدير أو تضيق عن قبوله الصدور ثم نظرنا في قدرما يحتاج اليه كل حمام من القوّام الذين لا قوام له إلا بهم ؛ فوجدنا الحمام محتاجاً الى ستة نفر هم صاحب الصندوق والقيمّ والوقاد والزبال والحلاق والحجام ؛ وربما أطاف بالحمام ضعف هذا العدد . فاذا فرضنا عدة الحمامات ستين الف حمام فقد حصل عـــدد ما فيها من القوّام والحلاق والحجامين ثلاثمائة وستين الف انسان ، ثم فرضنا بهذا التقريب لكل حمام مائتي منزل قياسا على ما حصل في المنازل على عـدة الحمامات بمدينة امير المؤمنين المنصور .. وهو لكل حمام اربعمائة منزل واستظهاراً باخذ النصف من ذلك فاجتمع من عدد المنازل على هذه الفريضة اثنا عشر الف الف منزل ثم وجدنا قد يجتمع في المنزل الواحد عشرون نفسا وفي غيره نفسان أو ثلاثة وما هو أقل من ذلك ، اكثر فاحتجنا أن نفرض عدداً متوسطاً يعتدل به الامر ويزول معـه الشك فنقصنا من العشرين نصفها وزدنا على الثلاثة ضعفها وجمعنا ما بقينا فكان ستة عشر واخـذنا النصف فكان ثمانية نفر بين رجال . ونساء وأكابر وأصاغر فاجتمع لنامن عدد تضمنه هذه المنازل ستة وتسعون الف الف انسان» (١) وهو كما يبدو عدد ضخم لم نسمع عن مؤرخ آخر يوصل نفوس بغداد اليه ـ وعلى كل فقد كان عدد الناس يتزايد بسبب الاستقرار والازدهار الصناعي والتجاري . ويقول ابن الجوزي « قال احمد ابن طاهر : ذكر في كتاب بغداد ان عدة الحمامات بها كان ٦٠،٠٠٠ حمام واقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر حمامي وقيمّ ، وزبال ، ووقاد ، وسقاء يكون ذلك ٣٠٠،٠٠٠ رجل وذكر انه يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد فتكون ٣٠٠،٠٠٠ مسجد واقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك ١،٥٠٠،٠٠٠ انسان .... وقيل عدت الحمامات ببغـداد في أيام المقتدر ٢٧ الف حمام . » (٢)

ومع كثرة التباين بين الروايتين الا اننا نستطيع ان نكوّن

(١) ابو الحسين هلال بن المحسن بن هلال الصابي ؛ رسوم دار الخلافة ـ النسخة الخطية بمكتبـة دار الآثار ، ص (٢٥ ـ ٢٩)

(٢) ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، ص (٢٤)

فكرة تقريبية عن مدى تركز السكان في بغداد ـ كما اننا نقدر ان نتقفى عدد نفوس بمقدار ما فيها من الحمامات فقد أحصيت الحمامات في ايام معز الدولة فكانت ١٧،٠٠٠ حمام وانهم عجبو من انتهائها الى هذه العدة مع كونها في ايام المقتدر بالله ٢٧،٠٠٠ حمام ولقد عدت في ايام عضد الدولة فكانت خمسة آلاف وكسر وفي ايام بهاء الدولة سنة ٣٣٢ فكانت الفاً وخمسمائة ونيفاً وهي الآن مائة ونيف وخمسون حماما (٣) .

ولا شك فان هذا التناقص التدريجي يعكس لنا بصورة جلية تكرر الاضطرابات السياسية في بغـداد وما تحدثه من الآثار على الحياة الاقتصادية في مدينة كبغداد قد تركز فيها السكان تركزاً مدهشاً. ويرى جرجي زيدان السبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الاول بمن دخلها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء ، واستولى الاجناد على مصالح الدولة ، وجعلوا همهم جمع المال لأنفسهم والتنازع على السلطة . ولا يخفى ما تجرّ اليه الفتن من وقوف الاعمال وغلاء الاسعار غير ما كان ترتكبه الحكام انفسهم من خزن الاقوات فتقل ارزاق العامة فيعمدون الى التعدي ويتألفون عصابات لمناوأة اصحاب الاموال من التجار وغيرهم من المدن ولا سيما بغداد ام المدائن الاسلامية في ذلك العهد . » (٤) فالاستاذ زيدان ولو انه وضع الاساس للحركة العامل السياسي واضطراب الاحـوال الادارية ، ولكنه لم يخف النتائج وهي وقوف الاعمـال وغلاء الاسعار ، وخزن الاقوات ، وقلة رزق العامة ، ومن ثم تعمد الطبقات الفقيرة الى التعـدي وتأليف عصابات لمكافحـة ارباب الاموال. فهم اناس ضاقت في وجوههم سبل الرزق وسدة ابواب الحياة ، فتوسلوا بطرق الفوضى والاضطراب للانتقام من ذلك المجتمع ـ فالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي التي خلقتهم وأوجدتهم وهي مسؤولة عن نتائج اعمالهم .

(٣) الخطيب ، ج (١) ص (١١٩) من طبعة مصر ، وراجع رسوم ـ دار الخلافة ـ النسخة الخطية بمكتبة الآثار ص [٣١]

(٤) جرجي زيدان ، التمدن الاسلامي ج (٥) ص (٣٤)

توجيه الفرد والامة

-٦-

بقلم : الاستاذ هادي العصامي

النزاع بين الفضيلة والرذيلة

إن سعادة كل انسان بحسبه ، فالعالم يرى نفسه سعيداً حينما يحل معضلة علمية ؛ أو ينهي مشكلة دراسية ، والعامل حين ينهي عمله ؛ والجندي حين يؤدي واجب وطنه ؛ الى غير ذلك من اسباب السعادة ، التي هي سعادة للشعب عامته ، ولكن متى تكون هذه السعادة مشتركة للشعب بكامله ؟ .

يجب أن يجرد المرء قلبه من الانانية ، ويكون ضميره نزيهاً كقلب الرضيع ، طاهراً كغيث السماء ، فالعالم يسعى حثيثاً في طلب العلم ، لا ليقول : نحن وهو ، بل ليخدم به امتـــه ؛ والعامل والمزارع وغيرهما من ذوي المهن والحرف ؛ انما يعملون ليضيفوا خيرات الى خيرات العالم التي ادخرها السلف الصالح لهم ؛ عندئذ يدرك هذه السعادة ؛ ولا يرى انسانا اسعد منه في تلك الآونة وتكون سعادته مشتركة ، ولكن لما جهلنا واجبنا الديني جهلنا الواجب الانساني ، فكان لكل غاية يسعى اليها من وراء عمله ، فواحد يعمل لأجل شهواته ، وآخر ليحلق بنفسه في سماء الشهرة والعظمة ، الأجدر به التشهير لانه يعيث ويفسد من طريق العلم ، فوجدت الرذيلة بذلك متسعاً في القلب ، فاخذت تنازع الفضيلة مركزها .

يقال : ان الاديان كلما تقادم الزمن على نشأتها ؛ يتضاءل عنصرها الاخلاقي ، يمكن ان يقال ذلك في الاديان التي لم تساير العصور حسب مقتضياتها ، وقد دخلها من التغيير والتبديل حسب الاهواء ؛ ما أضاع جوهرها الاساسي — على القول بأن ما جاءت به أو لو العزم من الرسل ، هو نفس ما جاء به نبينا محمد [ص] — أما الدين الذي لم يزل ولن يزال يحتفظ بجوهره وعنصره الاخلاقي ؛ مع مسايرته الى التطور والارتقاء كالاسلام فلا يؤثر تقادم الزمن على نشأته ، بل يتجدد بتجدد الزمن ، ولكن ركود الثقافة في العصر المظلم — العثماني — اوجب بعد المسافة بيننا وبين ديننا الحنيف ، وما ابعدنا عنه جهلنا تعاليمه ؛ فخلنا انه لا يتفق وروح العصر الراهن ، ولازم ذلك الجهل ان يتضاءل عنصره الاخلاقي بين المسلمين انفسهم ، اما هو بحد ذاته محتفظا بجوهره اذ لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل ، فالتضاءل للجهل به ولما جهلنا جوهره وجدت الرذيلة متسعاً في القلوب ؛ فاخذت تبذر بذورها ، لتزاحم غرس الفضيلة في منبتـه ، والبشر اذا لم

قال التنوخي على لسان شخص يتكلم عن لص لقيه في الطريق بين واسط وبغداد وكان عليه فضل « قلت يا هذا كيف بلغت هذه الحال ؟ قال : نشأت فلم أتعلم غير معالجة السلاح ، وجئت الى بغداد اطلب الديوان فما قبلني أحد فانتظمت الى هؤلاء وطلبت الطريق فلو كان انصفني السلطان وانزلني بحيث استحق من الشجاعة لانتفع بخدمتي وما فعلت هذا » (١) وهي قصة تعرب عن رغبة شاب يريد العيش بوسائل شريفة فلا يجد ذلك المجال وحينئذ يتنكر للمجتمع وينتقم لنفسه . ويذكر التنوخي قصة اخرى عن اللص ابن حمدون « يا هذا لعن الله السلطان الذي أحوجنا الى هذا فانه قد اسقط ارزاقنا فاحتجنا الى هذا الفعل ولسنا فيما نفعل ارتكاب امر أعظم مما يرتكبه السلطان أنت تعلم ان ابن شيراز في بغداد يصادر الناس ويفقرهم حتى يأخذ الموسر المكثر فلا يخرج من حبسه وهو يهتدي الى شيء غير الصدفة وكذلك يفعل البريدي بواسط والبصرة والديلم ويتجاوز ذلك الى الحرم والاولاد فاحبسونا نحن مثل هؤلاء . » (٢) وتبدو في هذا القول النقمة الشديدة التي يحملها اللص على المجتمع من جهة ثم على مبلغ ظلم الولاة للرعية ، وان هـذا الظلم نفسه هو الذي يقودهم الى هذه الاعمال وانهم انفسهم لا يرتضون ذلك لولا شدة حاجتهم اليه فهو يقول « لعن الله السلطان الذي احوجنا اليه » ؟

عبد الجليل الطاهر

(١) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج [٢] ص [١٠٧]

(٢) التنوخي ؛ الفرج بعد الشدة ، ج [٢] ص [١٠٨]